ابن الزيات

هو العصامي ابو جعفر محمد بن عبد الملك بن ابان بن حمزة اللغوي النحوي الكاتب الشاعر البليغ وزير المعتصم فالواثق فالمتوكل من خلفاء بني العباس وذلك لم يجتمع لوزير قبلهُ قط

وكان ابن الزيات جامعاً بين العلم والظلم والادب والطمع والعقل والبخل والقسوة واللين فلم يرَ قبلهُ ولا بعدهُ من اشتملت صفاتهُ على هذه الامور المتباينة من مشاهير الرجال

ومن اغرب احوالهِ انهُ كان في اول نشأتهِ قروياً سيروتاً حقيراً من قريةٍ في الجبل اسمها « الفسكرة » وكان جدهُ ابان يجلب الزيت من قريته الى بغداد على حمارٍ لهُ ويبيعهُ من اهل السوق فسمت بحفيدهِ هذا همتهُ وارتفع بهِ ادبهُ وعملهُ فدخل في مصنف الكتبة ثم اصبح القابض على اعنة الخلافة العباسية وهي في ذروة مجدها وبمجموحة عزها وعنفوان شبابها اعواماً طوالاً يعزل و يولي ويمنع ويمنح ويبرم وينقض لا رادَّ لامرهِ ولا شريك في رأيهِ وهو يملأ البلاد جوراً وبغياً ويتحكم في العباد ظلماً وتعسفاً ويتجاوز حدَّ المألوف من اشالهِ في تلك العصور عتوًّا واستكباراً حتى ضاق عن تحمل استرساله في غلوائهِ واستدراجهِ في طغيانهِ الذرع وانقطعت دون السكوت عن عسفهِ وجبروتهِ عرى الصبر فانزل بهِ « المتوكل » سخطهُ وصبَّ على رأسهِ مجال نقمتهِ كما سيجيء فهلك غير مأسوف عليهِ كما يموت اضرابهُ من الظالمين

وما من يدٍ الاَّ يد الله فوقها وما ظالمٌ الاَّ سيبلى بأظلم

قيل في سبب وصولهِ الى الوزارة ان المعتصم كان مستوزراً قبلهُ احمد بن عمار ابن شاذي البصري وكان عالماً غبياً وكان المعتصم ضعيف الكتابة قليل الالمام بكلام العرب فورد عليهِ في بعض الايام كتاب من بعض عمال الاقطار فيهِ ذكر الكلا فقال لوزيرهِ ما معنى الكلا ؟ قال لا ادري فقال المعتصم حزبتا « خليفة اُمي ووزير عامي » ثم قال ابصروا من بالباب من الكتاب فوجدوا محمد ابن الزيات فادخلوهُ اليهِ فقال لهُ اتدري يا هذا ما الكلا ؟ قال « العشب على الاطلاق فان كان رطباً فهو الحلا فاذا يبس فهو الحشيش » وبدأ ثمت في تقسيم النبات تقسيماً بديعاً بلسانٍ ذلق وجنانٍ ثابت وكلام وجيز جارٍ على اسلوب فصيح بليغ شُدِه لهُ الحاضرون واعجب بهِ السامعون فاكبر المعتصم فضلهُ واستوزرهُ محكماً اياهُ في كليات امورهِ وجسامها فبسط الرجل يدهُ في الرعية والعمال واظهر من

الكفاءة والاقتدار ما اصارهُ وحدهُ صاحب الحل والعقد كل مدة المعتصم ولما مات اقرَّهُ الواثق على ما كان فيهِ ايام ابيهِ بعد اذ كان ساخطاً عليهِ وهو ولي العهد حتى اقسم انهُ ينكبهُ اذا صار الامر اليهِ فلما تحقق درايتهُ على اثر توليهِ الخلافة وثبت عندهُ ان ليس بين الكتَّاب ورجال الدولة من يماثلهُ ادباً وعلماً وتمرُّساً على العمل عدل عن رأيهِ وكفَّر عن يمينهِ قائلاً « المال عن اليمين عوض وليس للخلافة عن ابن الزيات عوض » وما برح الآمر الناهي القابض الباسط المستأثر بحل كل مشكلة معضلة من شواغل الملك وطوارئهِ الى ان مات الواثق ايضاً وخلفهُ اخوهُ المتوكل

وكان لما أوقف الواثق وقطع الرجاء من شفائهِ اخذ ابن الزيات يدبّر سرّاً على حرمان المتوكل وتولية ابن الواثق لانهُ كان يبغض المتوكل وما دخل عليهِ مرَّةً في خلافة اخيهِ الاَّ تجهمهُ واساء مقابلتهُ واغلظ لهُ في الكلام مما اوغر صدر المتوكل حقداً عليهِ . اما القاضي احمد بن ابي دواد الايادي فكان ضلعهُ مع المتوكل لانهُ كان عدوّاً لدوداً لابن الزيات ومن مصلحتهِ ان ينصب خليفة كالمتوكل يمالئهُ على الفتك بالوزير واستصفاء اموالهِ فاتحد مع غلمان الدار وقادة الجند على مناوأة ابن الزيات ومناصبتهِ فيما يريد وما زالوا يتلطفون بالامر حتى افلح مسعيهم ووصلت الخلافة الى من يريدون فما مرَّ على ولاية المتوكل اربعون يوماً حتى دهم ابن الزيات بالنكبة القاضية وذلك بان قبض عليهِ واستصفى امواله واماناهُ في تنُّور كان اتخذهُ الوزير لتعذيب الناس وهو من حديد جُعل في باطنهِ مسامير كثيرة محدَّدة الاطراف وهي فائمة كرؤوس المسلاَّت وقد طالما عذَّب فيهِ المُصادَرين من ارباب الدواوين وغيرهم ممن كان يطمع باموالهم فكان المسجون في ذلك التنُّور كيفما انقلب او تحرَّك تدخل المسامير في جسمهِ وتذيقهُ اشدَّ الالم وهي طريقةٌ للتعذيب لم يسبق اليها في الاسلام وما قبلهُ من امم التاريخ

ومما يروى عن شدة قسوتهِ وغلظة كبدهِ انهُ كان اذا قال لهُ المعذَّب « ارحمني ايها الوزير » يقول لهُ « ان الرحمة خورٌ في الطبيعة » فلما اعتقلهُ المتوكل امر بادخالهِ في التنور بعد ان قيدهُ بخمسة عشر رطلاً من الحديد فقال « يا امير المؤمنين ارحمني » فاجابهُ الخليفة كما كان يجيب الناس « الرحمة خورٌ في الطبيعة » ولما طال حبسهُ في التنور واشرف على الموت طلب دواةً وقرطاساً وكتب في رسالة الى المتوكل

هيَ السبيلُ فمن يومٍ الى يومٍ كأنهُ ما تريك العينُ في النومِ
لا تجزعنَّ رويداً انها دولٌ دنيا تنقَّل من قومٍ الى قومِ

وبعث بها الى الخليفة فاشتغل عنها بما لديهِ من الاعمال ولم يقف عليها الاَّ في الغد فادركتهُ

الرأفة عليه وامر باخراجه فوجدوه ميتاً وقد كتب بالفحم على جانب التنور

من لهُ عهدٌ بنومٍ يرشد السبُ اليهِ
رحم الله رحيماً دلَّ عيني على عينهِ
سهرت عيني ونامت عين من هنَّ لديهِ

وكانت وفاتهُ في الثامن عشر من شهر ربيع الاول سنة ٢٣٣ للهجرة وهو في حدود الستين ودامت مدة حبسهِ اربعين يوماً

قيل لما وضعوهُ في التنور قال لهُ خادمهُ « صرتَ الى ما صرت اليهِ وليس لك حامدٌ » فقال « وما نفع البرامكة حسن صنيعهم وجميلهم » فقال الخادم « ذكرك لهم سيفي مثل هذه الساعة » قال صدقت وبكى حتى بلَّ ثوبهُ

وقال احمد الاحول لما قبض على الوزير تلطفت حتى وصلت اليهِ فرأيتهُ في حديدٍ ثقيل فقلت لهُ « يعزُّ عليَّ ما ارى يا ابا جعفر » فقال مرتجلاً

سل ديار الحيِّ من غيَّرها وعفاها وعفا منظرها
وهي الدنيا اذا ما اقبلت صيَّرت معروفها منكرها
ايُّ الدنيا كظلٍّ زائلٍ فلهذا الله الذي قدَّرها

وكان ابو عثمان الجاحظ العالم البصريُّ المشهور منقطعاً الى ابن الزيات فلما قبض عليهِ وعذِّب في التنور هرب الجاحظ فقيل لهُ لماذا هربت ؟ قال خشيتُ ان اكون « ثاني اثنين اذ هما في التنور » (١) ثم أُوتي بالجاحظ بعد موت ابن الزيات وهو مقيدٌ وفي عنقهِ سلسلة وعليهِ قميص بالٍ فقال لهُ القاضي « لقد عشتَ كفوراً لنعمة سيدنا لساوىء » فقال الجاحظ « خفِّض عليك ايدك الله فوالله لأن يكون لك الامر عليَّ خيرٌ من ان يكون لي عليك ولأن اسيء فتحسن احسن في الاحدوثة عنك من ان أُحسن فتسيء ولان تعفو عني في حال قدرتك اجمل بك من الانتقام مني » فاعجبهُ جوابهُ وعفا عنهُ . ومن احكم ما ينسب الى الجاحظ قولهُ

سقام الحرص ليس لهُ شفاءٌ وداء الجهل ليس لهُ طبيبُ

ولقد رأينا لابي عبادة البحتريِّ المشهور — وهو معدود من طبقة ابي تمام والمتنبي — ابياتاً في وصف انشاء ابن الزيات هي من فاخر النظم ونقيهِ تدل على مكانة الرجل الادبية بين رجال عصره من حيث التفوق في صناعة القلم لاح لنا ان نجعلها خاتمة ترجمتهِ وهي هذه

(١) اشارة الى الآية القرآنية الواردة عن ابي بكر الصديق وهي « ثاني اثنين اذ هما في الغار »

قد تفنّنتَ في الكتابة حتى عطّل الناس فنّ عبد الحميد (١)
في نظام من البلاغة ما شكّ — أمروءٌ انهُ نظام فريد
وبديع كأنهُ الزّهر الضا — حك في رونق الربيع الجديد
ومعانٍ لو فصّلتها القوافي هجّنت شعر جرول والوليد (٢)
حزتَ مستعمل الكلام اختياراً وتجنّبت خلسة التقعيد
وركبت اللفظ القريب فادركت — به غاية المراد البعيد (٣)

دمشق سليم عنحوري

ملتقى النيلين

خلوت الى النيلين والليل سربالي على روضة محضأة النجم عطّال (٤)
اساور طوراً سيف الصباب نجومهُ وطوراً اناجيها بمطلعها العالي
كنت باحشاء الظلام كأنني بقيّة طيف في دوارس اطلال
اصيخ الى صوت النسيم اذا سرى يبوح بشكواهُ لازرقَ سلسال
واسمع تهدار المياه اذا التقت فمن ابيض ساجٍ ومن ازرق خال (٥)
كأن امروءا غض الشباب منيّما على موعدٍ مع عيلة الجسم مكسال
تنورها من ارض سنيك وارتضى يراحَ تسانا والحراج باجبال (٦)
هوى لجباً يجتاح غيلاً وسبسباً فسرح اوعالٍ فعرّيس اشبال
تجيش بورّاد الساع ضفافهُ وتأوي التماسيح الضخام لاوشال (٧)

(١) كاتب مشهور كان على عهد الامويين (٢) شاعران مجيدان (٣) انظر كيف ان فحول الشعراء واعلام اهل الادب يفضلون حتى في ذلك العصر السهولة والوضوح في الانشاء واجتناب التعقيد واستعمال العويص الغريب من الالفاظ خلافاً لما يزعم بعض المتطفلين على صناعة الكتابة اليوم

(٤) خضل الشيء اي ندى حتى ترشش فداهُ وابتل . النجم من النبات خلاف الشجر وهو ما نجم على غير ساق . روضة محلال اي تحل الناس فيها ولتخلف ايها كبيرٌ . وهذا يطبق على (الخرطوم) حيث يلتقي النيلان الابيض والازرق (٥) ساج اي هادٍ . خال اي مختال ومرح كناية عن اندفاع ماء النيل الازرق لتحدر مجراهُ بخلاف النيل الابيض على ما هو معلوم (٦) اي ان النيل الازرق سعى الى النيل الابيض من ارض الحبشة . وتسانا بجيرة في الحبشة وهي ام مصادر النيل الازرق تحف بها الغابات والغضاب (٧) اي ان النيل الازرق عند مصادره غير مأهول فتكثر الحيوانات البرية وتختلف الى ضفافه